المحاضرة الخامسة (علم التفسير)

إنّ القرآن الكريم _ بوصفه طريقاً معرفياً إلى الله تعالى _ يهدف بصفته الكلية إلى تحقيق البعد المعرفي الغائي الكامن في معرفة الله سبحانه وتعالى ، وأنّ هذه المعرفة الغائية انبسطت في النص القرآني ابتداءً من بائه إلى سينه (إشارة إلى باء البسملة وهو أول حرف في القرآن ، وسين الناس وهو آخر حرف في القرآن) بعبارة أخرى أنّ القرآن الكريم ليس كتاب هدايةٍ فحسب أو دستورٍ لحياة مدنية ، بل هو أيضاً قد وضع في سلّمه المعرفي كمّاً كبيراً من المفاتيح المعرفية على صعيد التحقيق والتحقق معاً ، لتحقيق هدفه المعرفي الغائي الذي تكتمل به الرؤية الكونية الإلهية التي لا تنفك أبداً عن المعطيات المعرفية القرآنية ، والقراءة القرآنية يصعب الوصول إليها من دون العملية التفسيرية ، وبذلك تتبلور لنا أهمية علم التفسير في فهم النص القرآني.

وكان الرعيل الأول من المسلمين يفهمون القرآن في جملته ، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه ، أما فهمه تفصيلاً ، ومعرفة دقائقه بحيث لا يغيب عنهم منه شيء ، فقد تفاوتوا في ذلك ، بسبب اختلافهم في العلم بلغتهم ، وبمعرفة أسباب النزول... فكانوا يرجعون إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما لم يفهموه فيفسره لهم .

ومعنى التفسير الايضاح والتبيين ومعناه أيضاً الكشف ، يقال :فَسَرَ الرجلُ عن ذراعه ، إذا كشف عنها ، ويقال : أسفرت المرأة عن وجهها ، إذا كشفته ، فهي سافرة ، فتفسير القرآن هو الكشف عن معاني القرآن وبيان المراد منه والفهم السليم والتحليل الشرعي للآيات والسور ضمن سياق لغوي يفهمه الجميع من دون تغييب للمعاني الظاهرة والباطنة في اللفظ القرآني وتقوم على تفسير القرآن أصول الشريعة والدين ، فالقرآن مصدر التشريع الأول وعليه أساس الدين . والغاية من علم التفسير البحث عن مُراد الله تعالى من قرآنه المجيد ، فالموضوع هو القرآن والهدف هو الفهم والتوضيح ، والكشف عن المعاني التي جاء بها القرآن ، وهذا البحث بدأ منذ اللحظة الأولى لنزول القرآن وأستمر ، وهذا بالشكل الطبيعي سيُولّد العديد من المناهج والاتجاهات ، ومن هنا نجد أنّ علماء التفسير ، وأنّ أولئك الذين تصدوا لحركة التفسير منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا كلٌّ منهم إذا أراد أن يتكلم في فهم كلام الله تعالى وتفسيره ومراد الله تعالى ، يذكر القواعد والأسس لفهم كلامه جلّ وعلا .

ولابدّ لكل علم من منهج ، أي : طريقة بحث وطريقة استدلال ، وتتعدد الطرق والمناهج بحسب شخصية الباحث والموضوع الذي يروم بحثه ، فهي طريقته التي يعتمد عليها بالاستناد على مجموعة من الأدوات والشروط للوصول إلى الفهم والبيان للآيات ، فالمنهج هو طريقة الاستدلال المعتمدة للوصول إلى المطلوب ، وهنا لابدّ من الإشارة إلى أننا عندما نتحدث عن منهج ، هذا لا يعني أننا نتحدث عن منهج كامل، وإنما هذا المنهج يتناول جنبةً معينة أو جزءاً معيناً ، والمنهج الكامل هو الذي يستخدم أكثر من منهجٍ معتمدٍ في تفسير القرآن ، فتعدد المناهج بتعدد الطرق ، فمن المفسرين من أعتمد على القرآن في تفسير القرآن ، ومنهم من أعتمد على الروايات المأثورة عن الرسول والأئمة والصحابة والتابعين ، ومن من جعا العقل والرأي منهجاً له ، أو أتخذ اللغة والنحو والبلاغة والأدب مفاتيح لتفسيره.

وهناك اتجاهات حديثة في تفسير القرآن جاءت لتواكب التطور الحضاري والنشاط العلمي المستمر، كالتفسير الموضوعي والتفسير العلمي والتفسير السياسي والتفسير التربوي وغيرها من المناهج الحديثة . وقبل أن نشرع في بيان هذه المناهج تجدر الإشارة إلى أنّ كل عمل تفسيري لنصٍ ما يتضمن اقتراحاً لمعادلة تفسيرية ، أحد طرفيها هو النص المفسَّر ، وطرفها الثاني هو المقولة المفسِّرة ، وتتسع هوة المفارقة بين الطرفين أو تضيق ، تبعاً لقصدية النص ، وكفاءة المتلقي وكفاية المنهج ، ومدى التقارب بين النص وتفسيره .

ولا يخرج تفسير القرآن عن هذا الإطار ، من حيث إنّ هاجسه الأساس هو إدراك قصد الله من كلامه وإيصاله إلى المخاطبين به ، فإذا علمنا أنّ أحد طرفي المعادلة في التفسير هو كلام الله تعالى ، تبيَّن لنا مدى الحرج المعرفي الذي يقع فيه المفسر.

والتمييز بين تفسير اللفظ على صعيد المفاهيم، وتفسير المعنى بتجسيده في صورة محددة على صعيد المصاديق يعتبر نقطة جوهرية جدا في تفسير القرآن الكريم، وأداة لحل التناقض الظاهري الذي قد يبدو بين حقيقتين قرآنيتين وهما :الحقيقة الأولى: أن القرآن كتاب هداية للبشرية، أنزله الله سبحانه لإخراجها من الظلمات إلى النور، وإرشادها إلى الطريقة الفضلى في جوانب حياتها، وقد وصف نفسه بأنه (هدى للناس...) و (... نور وكتاب مبين) (تبيانا لكل شيء...) .(وهذه الحقيقة تفرض ان يجئ القرآن ميسر الفهم، وان يتاح للإنسان استخراج معانيه منه، إذ لا يحتاج للقرآن ان يحقق أهدافه ويؤدي رسالته لو لم يكن مفهوما من قبل الناس .والحقيقة الثانية: ان كثيرا من الموضوعات التي يستعرضها القرآن أو يشير إليها لا يمكن فهمها بسهولة، بل قد تستعصي على الذهن البشري، ويتيه في مجال التفكير فيها لدقتها وابتعادها عن مجالات الحس والحياة الاعتيادية التي يعيشها الانسان، وذلك نظير ما يتعلق من القرآن باللوح، والقلم، والعرش، والموازين، والملك، والشيطان، وإنزال الحديد، ورجوع البشرية إلى الله، والخزائن، وملكوت السماء، وتسبيح ما في السماوات والأرض وما إلى ذلك من موضوعات، اذن فحقيقة أهداف القرآن الكريم ورسالته تفرض أن يكون ميسر الفهم، وواقع بعض موضوعاته يستعصي على الفهم ويتيه فيها الذهن البشري.

وحل التناقض الظاهري بين هاتين الحقيقتين انما يكون بالتمييز بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى، لان الحقيقة الأولى أن اهداف القرآن ورسالته انما تفرض ان يكون القرآن ميسر الفهم، بوصفه كلاما دالا على معنى: اي بحسب تفسير اللفظ، وهو بهذا الوصف ميسر الفهم، سهل على الناس استخراج معانيه، وانما الصعوبة في تحديد الصور الواقعية لمعانيه ومفاهيمه .

فكل الآيات التي استعرضت تلك الموضوعات التي أشرنا إليها في الحقيقة الثانية تعتبر مفهومة من ناحية لغوية، ولا صعوبة في التفسير اللفظي لها، وانما الصعوبة تكمن في تفسير معنى اللفظ لا في تفسير اللفظ نفسه، لان تلك الموضوعات ترتبط بعوالم ارقى من عالم الحس الذي يعيشه الانسان، فيكون من الطبيعي ان يواجه الانسان صعوبات كبيرة إذا حاول تحديد المعنى في مصداق معين، وتجسيد المفهوم في الذهن ضمن واقع خاص ، وقد يتساءل هنا عن الضرورة التي دعت القرآن الكريم إلى أن يتعرض لمثل هذه المعاني التي يستعصي تفسيرها على الذهن البشري، فيخلق بذلك صعوبات ومشاكل هو في غنى عنها . ولكن الواقع أن القرآن الكريم لم يكن بإمكانه ان يتفادى هذه الصعوبات والمشاكل، لان القرآن بوصفه كتاب دين يستهدف بصورة رئيسة ربط البشرية بعالم الغيب، وتنمية غريزة الايمان بالغيب فيها، أو تقريب صورته إلى الذهن الانساني المادي ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق تلك الموضوعات التي تنبه الانسان إلى صلته بعالم أكبر من العالم المنظور، وإن كان غير قادر على الإحاطة بجميع أسراره وخصوصياته ، لهذا فالقرآن كتاب القرون والأجيال لا تنقضي عجائبه ، بل هو جديد ما دامت السموات والأرض ، لأنّ الله تعالى لم يجعله لزمانٍ دون زمان ، ولا لناسٍ دون ناس ، وهو في كلّ زمان جديد وعند كلّ قوم غضٌّ إلى يوم القيامة.

المحاضرة السادسة (مناهج علم التفسير)

ومن أبرز المناهج التفسيرية :

١- منهج تفسير القرآن بالقرآن : يُعد منهج تفسير القرآن بالقرآن أول المناهج التفسيرية قاطبة وأقدمها وأرفعها شأناً ، فلا نكاد نجد مفسِّراً قد تنصل عنه ، حتى الذين اعتمدوا منهجاً خاصاً بعينه ، نراهم قد استفادوا من هذا المنهج في تفسيرهم .

ويُراد به أن تكون النصوص القرآنية بعضها مفسِّراً للبعض ، وإذا ما عرفنا أنّ التفسير هو الكشف عن معاني النص القرآني فإنه في ضوء هذا المنهج يكون النص القرآني المراد كشف معانيه مُنكشفاً ومُفسَّراً بنصٍ قرآني آخر ، فالقرآن يُفسّر بعضه بعضا ، قال تعالى :" وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ"(النحل ٨٩) وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكل شيءٍ ولا يكون تبياناً لنفسه .

فهذا المنهج يقوم على فكرة أن نفسِّر القرآن بالقرآن ، ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبر المندوب إليه في القرآن نفسه ، إذ قال تعالى : " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا " (محمد ٢٤) ونشخص المصاديق ونتعرف عليها بالخواص التي تعطيها الآيات ومن أبرز التفاسير التي سارت على هذا المنهج بشكل واضح وجلي هو تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطبطبائي.

٢- منهج التفسير بالمأثور : كان الرسول هو المعلم الأول لهذا الكتاب الإلهي ،قال تبارك وتعالى : "وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (النحل ٦٤) فلفظة (لتبيَن) إشارة الى أنَ القرآن يحتاج الى تبيين، والتفسير بالمأثور أو التفسير الروائي أحد المناهج الشائعة في تفسير القرآن ، وجاءت تسمية المصطلح من لفظة (الأثر ومنه حديث مأثور ، أي ينقله خلف عن سلف ، وسنن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) : آثاره ، فالمأثور هو الكلام المروي المذكور عن الآخرين ، الذي ينقله خلف عن سلف ، ومن هنا ورد مصطلح التفسير بالمأثور ، وتعريفه : هو التفسير الذي يعتمد الأقوال المأثورة عن النبي وأهل بيته وصحابته والتابعين وكان هذا النوع من التفسير أولها ظهوراً في عملية التأليف والتدوين ، فدونوا السنَة التي جاءت مُبينة لكتاب الله أو بما رُوي عن أئمة أهل البيت والصحابة والتابعين لأنهم كانوا أعلم الناس بكتاب الله بعد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن أبرز التفاسير التي سارت على وفق منهج التفسير بالمأثور (جامع البيان في تفسير القرآن / لابن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ) ويقع تفسيره في ثلاثين جزءاً ، وطريقته في التفسير تتجلى في أنه إذا أراد أن يُفسر آية من القرآن يذكرها ويستشهد بما أُثِر من السُنة النبوية ، ويذكر السند عن طريق الرواية المنقولة.

٣- منهج التفسير بالرأي: الرأي : مصدر رأى رأياً ويُجمع على آراء ، وهو التفكر في مبادئ الأمور، ونظر عواقبها، وعلم ما تؤول إليه من الخطأ والصواب. والتفسير بالرأي: أن يعمل المفسر عقله في فهم القرآن والاستنباط منه ،مستخدماً العقل والاجتهاد، لذا يُطلق على هذا النوع من التفسير (التفسير العقلي) و(التفسير الاجتهادي). ومن أبرز التفاسير التي سارت على وفق هذا المنهج : تفسير " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨ هـ) ، يعتبر أضخم تفسير وصل إلينا من تراث المعتزلة ، وقد نال من الذيوع والانتشار قديمًا وحديثًا قدرًا كبيرًا ، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى حسن عبارة مصنفه ، وتمكنه من تطبيق منهج عبد القاهر الجرجاني البلاغي في دراسة بلاغة القرآن الكريم ، وتكمن خطورته فيما تضمنه من أصول وعقائد المعتزلة في تفسيره لآيات القرآن ، فقد نحى الزمخشري في تفسيره منحى الاعتزال ، فشرحه في

ظل الأصول الخمسة للمعتزلة (العدل - التوحيد - الوعد والوعيد - المنزلة بين منزلتين - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

٤- منهج التفسير اللغوي هو المنهج الذي يعتمد على استخلاص معاني الآيات الكريمة عن طريق اللغة ؛ حيث يرى أصحاب هذا المنهج في النص القرآني إضافة الى كونه نصا دينيا هو نص أدبي ، معجز في لغته وبلاغته وفصاحته . وقد شكل أصحاب هذا المنهج مدرسة خاصة بهم ، تميزت أبعادها في البحث عن لغة القرآن ، وعن مجازات القرآن ، وعن غريب القرآن ، و عن معاني القرآن ، وعن مفردات القرآن ، ويعتبر كتاب "معاني القرآن" لأبي زكريا يحيى الفراء تـ : ٢٠٧ هـ، أول كتاب مطول جمع بين الاهتمام بالمفردات، وتعقب الإعراب وشرح معاني الآيات، وكان الفراء " لا يكتفي بذكر ما في الآية من أحكام أو تعليلات أو ما فيها من إعرابات، بل كان في الأغلب يوثق ذلك بالشواهد، سواء كان من القرآن الكريم، أو من الشعر العربي، أو من أقوال العرب، والكتاب غني بكل ذلك" ومن التفاسير التي أعتمدت منهج التفسير اللغوي :تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥ هـ) وهو من التفاسير التي اهتم مصنفها بذكر وجوه الأعراب لألفاظ القرآن ودقائق مسائله النحوية وذكر مسائل الخلاف فيها حتى كاد الكتاب أقرب ما يكون كتاب نحو منه كتاب تفسير.

٥- منهج التفسير الموضوعي: منهج يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر ، وقيل هو إفراد الآيات القرآنية التي تعالج موضوعا واحدا وهدفا واحدا، بالدراسة والتفصيل، بعد ضم بعضها إلى بعض، مهما تنوعت ألفاظها، وتعددت مواطنها - دراسة متكاملة فهذا المنهج يبدأ من الموضوع - من الواقع الخارجي - ويعود إلى القرآن ، فهو يُوحد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم ؛ لا بمعنى أن يحمل التجربة البشرية على القرآن فيكون القرآن خاضعاً للتجربة البشرية ، بل بمعنى أنّه يوحد بينهما في سياق بحث واحد ، لكي يستخرج نتيجة هذا السياق الموحد من البحث ، فيستخرج المفهوم القرآني الذي يمكن أن يحدد موقف الإسلام تجاه هذه التجربة أو المقولة الفكرية التي أدخلها في سياق بحثه. ومن أبرز التفاسير التي اتخذت منهج التفسير الموضوعي : "التفسير الموضوعي للقرآن الكريم" حول "صورة وسيرة الانسان" بقلم المرجع الديني آية الله جوادي الآملي. ويختص كتاب "صورة وسيرة الإنسان في القرآن" بشريحة أساتذة العرفان والفلسفة وذلك لعمق بحوثه وإثاراته.